الأوصاف البهيجة لمدينة مكة المكرمة

عندما أصبح الشريف بركات شريفاً ، دخل إلى المدينة المكرمة وسط إحتفال عظيم. وجاء إلى الحرم الشريف ، وجلس عند الدرجة الثالثة ، أسفل منبر رسول الله « ﷺ » . وجاء جميع الأشراف ، والشرفاء ، والمشايخ ، وأهل الوفاء من الأئمة ، والخطباء ، والعلماء ، وجميع الآعيان الكبار ، وعلى العموم ؛ حضر الجميع ، الكبير والصغير ، إلى الحرم الشريف ، وبايعوا الشريف بركات . ونادى المنادون فى كل مدينة مكة باعطاء الأمان لخلق الله ، ومنح آمان آل عثمان لجميع خلق الله ؛ وبشروا الناس بأنهم سيكونون فى أسعد حال . واستمر الإحتفال ، والإبتهاج ثلاثة أيام ، وثلاث ليالي ، وزيَّن كل الناس مساكنهم ، ومتاجرهم ، ومحلاتهم ، وطالب المنادون الآهالي بان يزينوا دكاكينهم .. وما أن سمع الآهالي ذلك ، حتى ردَّدوا ﴿ العظمة لله ﴾ وما هي إلا ساعات حتى تحولت المدينة ، بداية من الجامع الشريف والطرقات العامة إلى محفل يمج بالنشاط ، وتم تنظيف وتطهير الشوارع والطرقات ، وكل شخص من الاهالى حسب مقدرته ، قام بتزيين منزله.

وفتحوا أبوابهم ، وشرعوا فى زيارة بعضهم البعض ، وزيارة حجاج المسلمين وزيَّن كل واحد من الآهالى باب بيته أو دكانه بآحلى أنواع الزينة ، وعلّقوا القناديل والثريات حتى تشعشعت المدينة بالأضواء المتلئلئة . وأُشعلت آلاف القناديل والشموع ، والمصابيح ، والفوانيس فى جميع الأسواق السلطانية = الرئيسية . وعلقت آلاف ، بل مئات الآلاف من المشاعل ، والشمع الكافوري حتى تبددت ظلمة الليال ؛ وأصبح الليل مضيئاً كالنهار تماماً ... واستمرت الصحبة . كما يكون الحال فى ليلة القدر – حتى الصباح .. ولما كانت مدينة مكة مدينة منورة ، فاضحى نور على نور .. وقام كل آصحاب الحرف بتنظيف دكاكينهم .. وجمَّلوها بالمفارش والطناميس ، وأخذوا فى السمر والتسامر مع بعضهم البعض ، ومع أحباءهم .. وتبادلوا شتى أنواع المشروبات كالشربات ، والشاي ، والقشير ، والسحلب ، وقدموا المهلبية ، والقهوة . واللبن الخالص والعَيْران.[1] .. وكانت هناك أمام بعض الدكاكين ، أو أمام بعض الخانات مطربون ، ومقرؤون ومضحكون .. وغوازى ،

---

(١) العَيْران : لبن خض يُضرب بالملح ، ويُشرب ، ويُقدم مع الطعام ويستحب فى فصل الصيف واشتداد الحرارة . لبن منزوع الدسم يضاف إليه الملح ويشرب بادراً . « المترجم »

وفتيات عفيفات ، بأصواتهن الملائكية يتغنون بالموال الحزين .. أو بالقصائد الغزلية .. وترقص الراقصات والراقصون .. والكل يُطلق «الحي .. هو» [1]. وتشمل المكان نغمة روحانية بحيث لا يتمالك الحضور نفسه عن التكبير وآرباب التجارة .. كان كل منهم يعرض ما لديه من بضائع رائجة .. وفى سوق لحسا = الاحساء ، سوق اللولي = «اللؤلؤ..» كما يسمونه .. ويؤدى إليه طريق عام .. أو هو نفسه طريق عام.. سوق طويل المتاجر على الجانبين ، جميع دكاكينه كشباك السمك ، قد نُسجت من شبك رقيق .. وتمتد على الطريق بمصلوبات جميلة .. والسوق كله مزيّن.. ومعروض فيه وعلى الطريق الرئيسى شتى أنواع الحرير الأخضر .. والقمحى = البني الفاتح واللون البحري أى الأزرق فى زرقة البحر .. كما تعرض القطيفة .

كما توجد فى دكاكين بائعى الجواهر الألماس ، والياقوت اللعل = الأحمر والزمرد ، والفيروز = البيروز ، والعقيق ، واليمنى [2] والصمغ الجبلى وزبرجد عين الحور ، وعين السمك . وكل أنواع المجوهرات الغالية الثمن قد عرضها آصحاب المحلات فى عروض مبهجة ... حتى حوّلت شمس مكة المشرقة إلى شموس مشعشعة . ولما كانت أشعة شمس الدنيا تسقط عليها لم يكن يستطيع المرء أن ينظر إلى الأشعة المنبعثة عنها .. ولم يكن ليجرأ أن يفتح عينيه تجاهها .. وكانت العيون النرجسية تقف أمامها مبهورة ..

أما فى سوق العطارين ؛ حتى فى حالة عدم العبور ، فإن موارد العود ، والعنبر الخام ، والعود الملبَّس ، والمسك ، والكافور المسكي ، والسنبل الهندي ، والسنبل الخيطاى تفوح روائحها .. وتعبق المكان ويصبح رأس ، ودماغ كل انسان معطر .. أما فى سوق السلقرى ؛ فإنك ترى الورد ، والفل والسنبل ، والصندل ، وماء الورد والعطر السلطانى ، والياسمين ، والبنفسج ، والحناء .. كلها تفوح منها الروائح التى تُعيد روح الشباب إلى الإنسان .

---

(١) أكبر الظن أن الرحالة يقصد حلقات الذكر ؛ بما كان يجرى فيها من انشاد دينى ، وذكر وتراتيل ، ويجتمع فيها أرباب الطرق الصوفية ، وفى حلقات الذكر كانوا يطلقون بشكل جماعى ، ومتكرر «الله .. هو .. الحي هو ...» المترجم

(٢) اليمنى : غطاء رأس . أو تاج يوضع على الرأس ، أو تلبسه العروسة فى ليلة الزفاف ، ويكون من القماش المطرز ، أو الذهب أو الفضة المشغولة ، والمنقوشة بالموثيقات اليمنية . وهومشهور فى بلدان الجزيرة العربية . ويطلق أيضًا على حذاء الجلد حفيف ، مدبب الطرف الأمامي ، ورقيق الحواف . «المترجم»

وما أن يفرغ جميع الحجاج من الطواف والسعي بين الصفا والمروة حتى يمكثوا بعض الوقت فى واحد من هذه الدكاكين التى يُرحب أصحابها بهم قائلين « أهلاً .. وسهلاً .. » ويعظمونهم .. ولابد أن ينثروا عليهم من ماء الورد ، والعطر ، والبخور المائي .. ولابد أن يشعلوا الكثير والعديد من البخور ، والعنبر .. كما أنه من المعتاد أن ينثروا ماء الورد على الغادين والرائحين فى الطريق العام أمام دكاكينهم .. وذلك لأن أمر معاش أهل مكة منوط بالحجاج .. كما أن حضرة جناب الشريف قد أصدر تعليماته ، وتنبيهاته بحسن رعاية الحجاج .. لكل هذا يحرص أهل مكة على إرضاء الحجاج ، وجلب خاطرهم . خاصة وأن عدداً كبيراً من الحجاج كان قد قُتل داخل الحرم الشريف .. كما حدث نهب وإغارة على متاجر بعض التجار .. أما هذه السنة .. وفى داخل المدينة كان كل الناس يخرجون المشروبات ، والمأكولات تعبيراً عن المحبة ، وعرضاً للبيع ؛ وكان البيع والشراء ميسراً . كما أن كل يوم ؛ كانت تُطبخ فى المطبخ الخليلى أنواع متعددة من الحلويات ؛ كالمهلبيات ، والزولابيات ، وسكر النبات والحلويات الحموية ، وألوان متعددة من الأطعمة النفيسة وكانت تُقدم للغريب ، وكل الغرباء لدفع الجوع عنهم .. كما كانت تُقدم أنواع معقولة من الأشربة المعروفة كشربات الورد والليمون ، والبنفسج ، والفراولة ، والتوت ، والحمص ، والصندل ، وكان الشربات يُقدم من كل المنازل ، وكل الدكاكين لكل مَنْ يريد أن يشرب دون أن يُسأل عن درهم أو دينار . وهكذا .. فإن آلاف آلاف المسلمين الذين جاءوا ليؤدوا هذه الفريضة تحت هذه القبة الزرقاء طاعة ، وطواعية منذ آمد بعيد ، وهم يسعدون بهذه التلبية .. وتطيب نفوسهم ويشعرون وكأنهم فى الفردوس الموعود .

وإذا كان الحبيب النبى قد كرَّمه الله بالرسالة ، وهو فى الأربعين من عمره ، فإن من بواعث المحبة لحضرته ، أن الله سبحانه لم يجعل الحج مطلقاً ، بل ربطه بالقدرة ، والإستطاعة ﴿ .. مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ (١)

وبالسلام أتممنا نسك الطواف والزيارة ..

* * *

(١) سورة آل عمران : آية ٩٧ .